نقد العقلانية التنويرية عند هردر

بقلم: أ.كرام ياسين

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

الملخص: سادت في القرن الثامن عشر فلسفة للتاريخ قائمة على العقلانية، وكان روادها فلاسفة التنوير الذين يروجون لفكرة التقدم العقلي في التاريخ. غير أن هردر، الذي كان معاصرا لهم، كشف عن ميكانيزم هذه الفلسفة التنويرية وانتقدها مقدما فلسفة أخرى للتاريخ بديلة عنها. وعليه فإن هذا المقال يتكلم عن سبب معاداة هردر للهستريوغرافيا التنويرية العقلانية وعن فلسفته البديلة.

Résumé :

Durant le dix-huitième siècle, une philosophie de l'histoire fondée sur la rationalité a prédominé. Ses pionniers furent les philosophes des Lumières qui propageaient l'idée de progrès rationnel en histoire. Toutefois, Herder, leur contemporain, a dévoilé le mécanisme de cette philosophie de Lumières puis il l'a critiqué, en proposant une autre philosophie alternative de l'histoire. Alors, cet article va discuter les raisons pour lesquelles Herder a opposé l'historiographie rationnelle des lumières, et sa philosophie alternative de l'histoire.

الكلمات المفتاحية: فلسفة التنوير، فلسفة التاريخ، العقل، ضد التنوير، هردر، الاختلاف الثقافي.

مقدمة:

إذا كان سؤال ما التنوير؟ قد طرح في نهايات القرن الثامن عشر، والذي عرف إجابات عديدة وأشهرها على الإطلاق تلك التي قدمها كانط، فإن السؤال عن التيار المعادي لفلسفة للتنوير والذي يعرف عادة بـ: les anti-lumières لم يهتم به المفكرون والفلاسفة إلا بعد النصف الثاني من القرن العشرين، وبالتحديد مع المفكر البريطاني ايزايا برلين الذي يعود إليه الفضل في نشر مصطلح "ضد التنوير"؛ حيث كان من بين أوائل من

اهتموا بأفكار الفلاسفة الذين ثاروا ضد قناعات عصر التنوير والحداثة بشكل عام.[1] وقد كتب في هذا الشأن المفكر اليهودي زيف سترنال مؤلفا بعنوان "**ضد التنوير**-les anti-lumières "تحدث فيه عن هذا التيار المعادي لفلسفة التنوير، وفيه اعتبر كلا من هردر وإدموند بيرك من بين الفلاسفة المهمين الذين أسسوالهذا التيار؛حيث سعى سترنال إلى تبيان أن تاريخ الفكر الغربي عرف تصورين متناقضين حول ما يجب أن تكون عليه الحداثة، فإذا كان التنوير يرى أن الحداثة تكون عن طريق تحرير الإنسان من كل الوصايات التي تكبله سواء كانت دينية أو اجتماعية، وعدم قبول شيء ما على أنه حقيقة مالم يتأكد بعقله على أنه كذلك،وأن سعادة الإنسانية وتقدمها مرهون بمدى تشبثهابالعقل، والعقل وحده في تنظيم وتسيير شؤونها،وإعلاء القيم والمعايير الفردية على القيم والمعايير الجماعية. أما التصور الثاني والذي يمثله التيار المعادي للتنوير فإنه يرفض أن يكون العقل وحده معيار سعادة الإنسانية وتقدمها مؤكدا على أهمية الموروثات الأخرى في حياة الأفراد والمجتمعات. فإذا كان التنوير يؤكد على ما يجمع البشر ويدعو إلى القيم والمعايير العالمية المستمدة من العقلانية. فإن التيار المعادي له يؤكد على احترام كل ما يفرق البشر ويجعلهم متمايزين مثل اللغات والعادات والتقاليد والمعتقدات.[2]

وإذا كان التنوير يدعو إلى الاستقلالية من كل الوصايات الخارجية وعدم الإيمان بأي شيء آخر غير العقل فإن التيار المعادي له يرى أن الإنسانية بحاجة إلى هذه الوصايات الأبوية والدينية ومختلف الموروثات الأخرى. ويذهب زيف سترنال في كتابه إلى أبعد من ذلك معتبرا أن الثورة ضد التنوير حملت طابعا سياسيا أكثر منه فلسفيا، فقد كانت ثورة ضد الكوسموبوليتانية، ضد القيم العالمية، ضد التفكير الحر الذي لا يأبه بالدين ولا بالعادات ولا

---

[1] Jean ZAGANIARIS, « Lectures critiques », *Revue française de science politique*, 2007/1 Vol. 57, p. 91-101.

[2] TestotLaurent, « Contre les Lumières, une autre modernité ? », *Sciences humaines* 7/ 2006 (N°173), p. 71-71.

بالتقاليد، ضد النظرة المجردة للتاريخ، ضد استقلالية الفكر الذي يتخذ مسافة بينه وبين الأحكام المسبقة...وعمومايبدو أنه لما ظهرت في عصر التنوير هذه النزعة الشمولية والعالمية القائمة على العقلانية ظهرت معها الدعوة إلى النسبية واحترام الخصائص القومية والوطنيةالمتمثلة في العادات والتقاليد والمعتقدات.

ومن بين الفلاسفة الأوائل الذين أعلوا الحرب ضد قناعات عصر التنوير نجد الفيلسوف الألماني هردر، الذي أدرك مبكرا خطورة ما يدعوا إليه فلاسفة التنوير من عقلنة الحياة ومظاهرها، ما دفعه إلى الدخول معهم في صراعات فكرية حادة، فكانت كتاباته تعبيرا عن رفضه للحداثة التنويرية القائمة على العقلانية وعلى النظرة التجريدية للتاريخ وللإنسان والدين وللمجتمع وللحياة عموما. مطورا في المقابل فلسفة أخرى تؤسس لحداثة بديلة تحترم الاختلاف الثقافي وتعترف بقيمة كل المراحل التاريخية وتعطي الأهمية لمختلف تمظهرات الحياة الفكرية والاجتماعية والدينية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: لماذا تعرضت أفكار عصر التنوير للنقد من طرف هردر ومن حذا حذوه على الرغم من أن الفلسفة التنويرية كانت تحمل وعدا وأملا في تحقيق التقدم والسعادة للبشرية جمعاء؟ أو بالأحرى لماذا انتقد هردر العقلانية التنويرية التي كانت تبشر بتحقيق الكمال للجنس البشري؟

وحتى نجيب على هذه الإشكالية علينا أولا أن نكشف عن الروح السائدة في عصر التنوير وذلك من خلال الحديث عن ميكانيزم هذه الفلسفة التنويرية ثم نعرض بعد ذلك فلسفة هردر مبرزين في الآن نفسه أهم الانتقادات التي وجهها لفلاسفة عصره.

روح الفلسفة في عصر التنوير:

شهد القرن الثامن عشر ميلاد العقلانية التي كان روادها ثلة من الفلاسفة، أرادوا الانعتاق من كل ما هو غيبي خرافي ومن بعض الموروثات التي لم تخضع للمساءلة الجادة من طرف العقل. وكنتيجة حتمية لذلك تعرض الدّين والمجتمع للنقد والمساءلة، كما حدث انقلاب على الحكام والكنيسة، وتم التخلي عن بعض المصادر المعرفية التقليدية واستبدالها بأخرى تكون أكثر صلابة.وتأكّدوا أن العديد من الأجوبة لا يمكن بلوغها بكثير من الوسائل التقليدية المعروفة، فالوحي بكل أنواعه والسحر والأوهام وغيرها من الطرق الأخرى لا تجدي نفعا بل هناك طريقة واحدة فقط لاكتشاف الأجوبة وتتمثل في الاستعمال السليم للعقل ومناهجه.[3]

ويبدو أن سعي فلاسفة التنوير في التأكيد على دور العقل في تنوير البشر هو سعي إلى عتق الإنسان من الخوف سواء الخوف من الطبيعة أو من الآلهة أو من أشياء أخرى، وزرع الثقة فيه عن طريق تخليص العالم من هذه الأوهام التي نشرتها الأساطير والخرافات والمعتقدات الدينية[4]. وبهذا الشكل يوجه عصر التنوير ضربة قاسية للتصورات القديمة التي تفترض أن العالم مسكون بقوى سحرية وروحية غامضة،وإحلال مكانها مناهج عقلية وعلمية تعتمد على التفكير الموضوعي بلا عاطفة، بلا تعصب، بلا خرافة، ودون الرجوع إلى أقوال لا يمكن التحقق منها مثل تلك التي نجدها في الخطابات الدينية.[5]

وكان أول ضحايا هذا النموذج الجديد من المعرفة القائم على العقلانية هي الكنيسة. فقد كانت الكنيسة هي السلطة المطلقة التي توجه الفكر طيلة قرون عدة؛ حيث كانت تفسر الظواهر الطبيعية والاجتماعية والأحداث التاريخية بالله، وكانت كل نظرياتها تحيط بها هالة من التكريس الإلهي، وتعتبر التعاليم الدينية التي أوحى بها الله هي الحجة القاهرة التي تؤكد

[3] ايزايا برلين **جذور الروكانتيكية**، ترجمة: سعود السويدا، ط1، (لبنان: جداول، 2012)، ص 61.

[4] هركهايمر، أدورنو، **جدل التنوير**، ترجمة: جورج كتورة، ط1، (لبنان:دار أويا، 2006)، ص 23.

[5] دورندا أوترام، **التنوير**، ترجمة: ماجد موريس ابراهيم، ط1 (دار الفرابي، بيروت، ،2008)، ص 164.

صحة نظرياتها. وافترضت أن الوحي كشف عن بعضالحقائق، والطريقة الوحيدة لبلوغها على الوجه الصحيح هو تأويل هذه الحقائق الموجودة في النصوص المقدسة. وهذا يعني أن **المنهج** المتبع في العصور الوسطى للوصول إلى الحقائق ليس **دراسة الوقائع**؛ أي الطبيعة، وإنما **دراسة النصوص المقدسة وتأويلها**. ما يعني أن العقل في العصور الوسطى كان مغيبا. وإن ظهرت مساعي لعقلنة الدين فإن العقل ليس له الحق في التفكير خارج الحدود التي خطها له الدين.[6]

وقد أشار أرنست كاسيرر إلى أنه لا مجال للمقارنة بين العقلانية الموجودة في العصور الوسطى، هذا إن وجدت، بالعقلانية الحديثة؛حيث يقول "... والزعم بوجود عقلانية وسيطة يدل على عدم الدقة والكفاية في القول. فلم تتسع المذاهب الوسيطة لأي مكان لنوع مذهبنا العقلاني الحديث... أو عند فلاسفة القرن الثامن عشر. فلم يتشكك أي فيلسوف مدرسي في المكانة السامية لأية حقيقة موحى بها... ولم يكن مبدأ استقلال العقل معروفا في الفكر الوسيط، فالعقل لا يستمد نوره من نفسه(كما هو في العصر الحديث)، بل يلزمه منبع أعظم يستنير به كي يقوم بعمله".[7]

لكن، ومع بزوغ فجر العصر الحديث أخذت إيديولوجيات العصور الوسطى تتراجع في مقابل نمو خطاب جديدة من المعرفة حول المجتمع والطبيعة والإنسان. هذا النموذج الجديد يؤمن بقدرة العقل في تسيير شؤون البشر وجعلهم سعداء، وفي تنظيم المجتمع وتحرير الفرد من القيود التي تكبله. وأصبحت الإنسانية في هذه المرحلة تؤمن بالعلم الذي يعدّ ثمرة استعمال العقل ومناهجه. ومما زاد من قيمة هذا العصر هي النجاحات التي عرفتها أوروبا

---

[6] جورج بوليتزر، **فلسفة الانوار والفكرالحديث**، ترجمة: جورج طرابيشي، (بيروت: دار الطليعة، 1974).

[7] أرنست كاسيرر، **الدولة والأسطورة**، ترجمة: أحمد حمدي محمود، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 1975)، ص ص134-133.

آنذاك من تطور علمي غير مسبوق وانتشار للمعارف في شتى العلوم والفنون،وأصبحت السيطرة على الطبيعة أمرا ممكنا بعدما كانت مقدسة.

وهكذا تفَوّق العقل البشري في عصر التنوير وأصبح هو السيد، هو الآمر الناهي وإليه ترجع الأمور، بل هو ميزان الصدق والوهم، والخير والشر، وأداة التقدم والتطور.ولم يقتصر تطبيق العقل ومناهجه على الطبيعة فحسب، بل امتد ذلك إلى الحياة نفسها بكل ما يشكل تمظهراتها من عادات وتقاليد ومعتقدات. وظهرت مساعي لتنظيم المجتمع وضبطه وفقا لمعايير العقل وقوانينه.

وكنتيجة حتمية لاستعمال العقل ومناهجه كان الدين أول ضحايا هذا النموذج الجديد من المعرفة، فلم يعد الدّين في عصر التنوير، وخاصة التنوير الفرنسي، ذلك الشيء المقدس الذي ينبغي أن نطيعه ونتحمله، وإنما على الدّين أن يبرّر ذاته من الناحية العقلية، ولم يعد الإنسان ذلك الكائن الذي يسيطر عليه الدّين، وإنما أصبح ذلك الذي يخلق قناعاته ومعتقداته انطلاقا من حريته وإرادته، ولم يعد اليقين مصدره معطى سماوي وإنما على الإنسان بلوغه والاطمئنان إليه بنفسه، فاليقين ليس معطى سماوي وإنما نبحث عنه.[8]

كما كان عصر التنوير يروّج لفكرة مفادها أن جميع الأفراد يملكون طبيعة واحدة وكلية تشمل كل البشر، فعلى الرغم من أن البشرية متنوعة ومختلفة ألوانها ولغاتها وعاداتها ثقافاتها... إلا أنها تخضع كلها لميزان العقل، وهذا يعني أن الإنسانية حتى وإن اختلفت مكوناتها إلا أنها تخضع كلها لمعايير العقل. وانطلاقا من هذه الفكرة سعى فلاسفة التنوير إلى تصور أن حياة الإنسانية يمكن تنظيمها وفقا لمعايير العقل مادامت معاييره عالمية وكلية تنطبق على كل البشر.

---

[8] إيزايا برلين، مرجع سابق، ص ص 84-83.

ميزة التنوير إذن هي أنه يدعو إلى العالمية التي تستمد مقوماتها من العقل، وهذه العالمية يستطيع أن يلج إليها كل الأفراد، وبإمكانهم المساهمة فيها لأن قوانينها مستمدة من العقل، والعقل ملكة يشترك فيها كل البشر. كما تعد فكرة التقدم من أهم الأفكار التي يروج لها فلاسفة التنوير، ومفادها أن الإنسانية في تقدم مستمر وتسير نحو الكمال والسعادة المطلقة. فكلما زادت العقلانية-حسبهم- كلما تطور الجنس البشري وزاد كماله. هذا التصور التقدمي للتاريخ القائم على مبادئ العقل ومعاييره يعني-وهذا كنتيجة حتمية لفكرة التقدم العقلي للتاريخ- أن الحقب التاريخية السالفة هي أقل تقدما من الحقب التالية، ومنه فإن الشعوب والمجتمعات الماضية هي أقل تقدما وتطورا وتحضرا من اللاحقة.هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لما كان أساس هذا التقدم ومعياره هو مدى التشبث بالعقل والعقلانية فإن الشعوب والمجتمعات التي حاولت الاهتداء بنور العقل هي أكثر تقدما وتحضرا من تلك التي ابتعدت عن تعاليمه. ومن الواضح أن فلاسفة التنوير افترضوا أن التاريخ يمكن الحكم عليه وترتيبه وفقا للمعايير العقلية؛ أي وفقا لما يناسب روح عصرهم، وبالنتيجة فإن ما لا يتوافق أو يتعارض مع روح عصرهم يعد متخلفا ومنحطا وينبغي إقصاؤه.

وذهب أرنست كاسيرر إلى القول إن فلاسفة التنوير لم يدرسوا التاريخ من أجل ذاته، وإنما من أجل التحضير للمستقبل، لأن دراسة التاريخ ليست غاية في ذاتها وإنما وسيلة من أجل تأسيس نظام جديد يقود إلى تحقيق وضع أفضل للمجتمع البشري[9]. هذه الهستريوغرافيا التنويرية القائمة على العقلانية لم تعد تؤمن بالتاريخ المقدس الذي تحكمه العناية الإلهية وإنما تعتقد أن التاريخ يصنعه ويتحكم فيه الإنسان، وهذا يعني أن التنوير قد أبعد الله عن التاريخ ولم يعد يؤمن بفكرة العناية الإلهية، وهو ما نجدة جليا في فلسفة التاريخ عند فولتير.

9 أرنست كاسيرر، المرجع السابق، ص 242.

فلسفة التاريخ كما صاغها فلاسفة التنوير، وبالخصوص فولتير، تأثرت هي أيضا بهذا النموذج الجديد من المعرفة. فتطبيق المعايير والقوالب العقلية ليس مقتصرا على الطبيعة فحسب، بل امتدت عدوى العقلانية إلى كل شيء حتى التاريخ؛ حيث افترض فلاسفة التنوير أن التاريخ تحكمه قوانين عامة ودور الفيلسوف هو الكشف عنها. ففولتير مثلا-وإليه يعود الفضل في جعل مصطلح فلسفة التاريخ عاميا- أراد أن يحدث في هذا الميدان ما أحدثه نيوتن في ميدان العلوم الطبيعية. فعمل فيلسوف التاريخ يشبه إلى حد ما عمل الفزيائي، فكلاهما تجمعهما نفس الوظيفة وهي اكتشاف القوانين الكامنة خلف الظواهر، فكما أن الطبيعة مستقلة من كل تأثير غيبي،فكذلك الأمر بالنسبة للأحداث التاريخية، ومن السذاجة أن ننسب إلى الظواهر الطبيعية أو الأحداث التاريخية أشياء لا نفهمها.

وبهذا فإن فلسفة التنوير العقلانية أرادت أن تحرر التاريخ كما تم تحرير الطبيعة من قبل من كل التفسيرات الميتافيزيقية أو اللاهوتية واستبدالها بتفسيرات عقلية إمبريقية واقعية.[10] وتفسير التاريخ بطريقة عقلية له تبعات خطيرة على كل ما كان متوارثا من معتقدات وأفكار حول العناية الإلهية والمعجزات الإلهية، بعض القصص الدينية حول الخلق ... إلخ، كيف لا وقد تم إخضاعها جميعا للشك.

عصر التنوير إذن هو عصر الثورة الشاملة، عصر تميز بقلب الأنظمة والأفكار وإقامة أخرى. عصر عبّر عن سخطه الكبير على الدّين الموحى مستبدلا أياه بالتأليه الطبيعي الذي يتوافق أكثر مع العقل.

في القرن الثامن عشر أصبحت عقيدة العقل هي الأكثر رواجا. عصر أسّس لعقلانية تؤمن أن هناك حقائق عقلية ومنطقية تحكم الطبيعة والتاريخ ويمكن من خلالها فهم حياة الأفراد والمجتمعات فقط عن طريق تطبيق هذا النموذج الجديد من المعرفة مادامت تخضع

---

[10] Cassirer ,Arnert, **la philosophie des lumières**, traduit de l’allemand par : Pierre Quillet, Fayard, pp.223-226.

لقوانين موضوعية بإمكان العقل اكتشافها. ففي هذه المرحلة بالتحديد عرفت مكانة الدّين الموحى تراجعا،ليس فقط في الأوساط المثقفة فحسب، بل وحتى في أوساط الطبقات الأخرى من المجتمع، وهذا أمام الإيمان المتزايد في قدرة العقل على تسيير شؤون البشر ليجعلهم أكثر سعادة.

ولماكان**هردر** شاهدا على هذه اللحظة الانقلابية، وواعيا بتبعات هذه الفلسفة التنويرية العقلانية على الدين، على فهم التاريخ وفهم حياة الأفراد والجماعات عموما،رأى أنه لزاما عليه مجابهة هذه النزعة العقلية والمنطقية الجافة التي تريد أن تفرض معاييرها على الحياة، فكانت انتقاداته بمثابة قطيعة مع مسار الفكر الأوروبي عامة والفكر التنويري خاصة.

وبعدما عرضنا روح الفلسفة السائدة في عصر التنوير وفهمنا الميكانيزم الذي تعمل به وتسير وفقه يمكننا الآن أن نعرض موقف هردر من هذه الفلسفة وأهم الانتقادات التي وجهها إليها وآليات فلسفته البديلة.

فلسفة التاريخ كأداة لنقد العقلانية التنويرية:

لقد قلنا من قبل أن السمة الأساسية لعصر التنوير هي الإيمان الكبير بالعقل وبقدراته. فحسبهم إذا أراد البشر تحقيق التقدم والتطور عليهم بالعقل، وإذا أرادوا تنظيم المجتمع وجعله سعيدا وفاضلا، عليهم بالعقل، وإذا أرادوا فهم التاريخ وفهم حياة الأفراد والمجتمعات عليهم بالعقل، وإذا أرادوا تحرير الإنسان من مختلف القيود التي تستعبد جسده وفكره عليهم بالعقل.. بكلمة واحدة كان يُعتقد في عصر التنوير أن العقل هو طريق سعادة وخلاص الإنسان.

لكن، هذا لا يعني أن كل فلاسفة هذا العصر يسيرون جميعهم في هذا الاتجاه وأنهم يقدسون جميعا العقل ويحتكمون إليه. فقد تنامي في رحم هذا العصر تيار فكري آخر له

قناعات مخالفة، وفي كثير من الأحيان متناقضة مع مبادئ فلاسفة التنوير،وقد بدأ هذا التيار أول ما بدأ في ألمانيا مع كل من هامان وهردر.

لقد بدت تعاليم عصر التنوير بالنسبة لهامان قاتلة لكل ما يحي وينبض في البشر ويعتبرها كالمطفئة التي تخمد كل شرارات الحياة. ويرى في هذا التوجه العقلاني، في فهم وتنظيم حياة الأفراد والمجتمعات بأنه ينذر بموت الإنسان. لهذا ثار ضد هذا النموذج العقلاني الذي يهمل نبض الحياة وفيضها وفرديتها، كما رفض هذا التعميم والتصنيف والترتيب وفقا لمعاييرالعقل وقوالبه، لأنها تسيء فهم الدّين وفهم الروح الحية النابضة. كما رفض هذه العقلنة التي امتدت إلى كل شيء: الطبيعة، الحياة، الدين، التاريخ... ويرى أن الله ليس مهندسا أو رياضيا كما يتصور فلاسفة التنوير، بل هو شاعر ومن التفاهة أن ننسب إليه خططنا المنطقية والعقلية أو القول أن الطبيعة يمكن معرفتها بصورة كاملة وشاملة وأنه يمكن الإجابة على كل الأسئلة بشكل مضبوط وبصورة نهائية.[11]

انتقاد هامان للعقل التنويري كان لحساب رد الاعتبار لمكانة العواطف والانفعالات التي في نظره لا تعبر عن ضعف الإنسان، كما يعتقد فلاسفة التنوير، وإنما تعبر عن قوته، بل أن هذه الانفعالات والأحاسيس هي الأداة التي يحقق بها الفرد أصالته ويعبر عن وجوده الكلي؛ أي أن الفرد يعبر عن ذاته بشكل كامل وكلي في هذه العواطف والأحاسيس.

وتظهر الجدة في فكر هامان في هذه الفكرة المغايرة للفلسفة الكلاسيكية التي مفادها أن دائرة الروح لا ينبغي أن تكون مقموعة من طرف دائرة العقل.[12] ولو بحثنا عن سبب هذا التوجه المعادي للعقل من طرف هامانلاتضح ذلك حين ندرك أنه رجل دين مسيحي، والدين كما هو معلوم يعطي قدرا كبيرا للقلب الذي يعد منبع العواطف والانفعالات.لهذا

---

[11] ايزايا برلين، مرجع سابق، ص ص97-93.

[12] من محاضرات الأستاذ: سعيود سهيل في فلسفة التاريخ التي قدمها لطلبة السنة الرابعة فلسفة بجامعة قسنطينة في السنة الجامعية2011-2012.

عمل على إحياء مبادئ الدين المسيحي مبشرا بذلك بفلسفة مسيحية جديدة، تقوم على الإيمان، وتهتم بمحتوى الكتاب المقدس، وتجعله أسمى وأجلّ المعارف، ومن الإيمان الحل التوافقي لكل المتناقضات والوحدة المثالية التي تجمع الحدود المتباعدة.[13]

ولما كان المعنى الحقيقي للحياة وللعالم في نظر هامان لا نبلغه بالعقل فإن الشعر هو المعبّر الحقيقي عن الشعور الأصيل للفرد ولمعنى الحياة،ومنه فإن الشعر يصبح اللغة الأم للعالم.كما أن الأساطير وبعض المعتقدات الدينية ليست مجرد أوصاف كاذبة للعالم وللطبيعة، بل هي وسيلة عبّر بها البشر عن إحساسهم بألغاز الطبيعة والوجود التي تفوق كل وصف، ولم تكن هناك طريقة أخرى للتعبير عنها غير الاستعانة بالأساطير.أما الكلمات الجافة النابعة من العقل والمنطق فإنها تحطم وحدة واستمرارية المواضيع التي نتأملها ويضيع بذلك معنى العالم ومعه معنى الحياة.[14]

إن ما يستعيره هردر من فلسفة هامان هي فكرة كمال الوجدان والانفعالات التي لا يمكن اختزالها ضمن التصور الميكانيكي للعقل، وأن المشاعر والأحاسيس وليس العقل هي المعبّر الحقيقي عن الأفراد والمجتمعات، وأن الفلسفة الحقة هي تلك التي تقوم على الايمان، وأن الشعر والأسطورة هما اللغة التي بإمكانها أن تحتوي وتعبر عن معنى الحياة. لقد وجد هردر في هامان ما كان يبحث عنه: قلب كبير ومملوء بالإحساس، عقل مثقف وثوري، شخص متدين ومؤمن، وما استمده هردر منه كان كافيا لمواصلة الحرب ضد فلاسفة التنوير.[15]

كتب هردرف يعام 1774 مؤلفا بعنوان **فلسفة أخرى للتاريخ** موجه بالدرجة الأولى ضد فلاسفة التنوير وبالخصوص منهم فلاسفة باريس. هذا الكتاب وعلى الرغم من صغر

---

[13]Kopp Louis-Gustave, **études sur Herder**, Strasbourg, Veuve berger-Levrraut, 1852, P. 16.

[14] ايزايا برلين، المرجع السابق، ص106.

[15] المحاضرات السابقة.

حجمه إلا أن ماكتبه كان كافيا لإحراج فلاسفة التنوير وزعزعة مبادئ فلسفتهم،بل ويكشف هذا الكتاب عن حنكة وأصالة هردر كما يبين لنا أيضا إلى أي مدى يعد ناقدا شرسا لفلاسفة عصره. فعلى الرغم من أنه كان وليد هذا العصر (عصر التنوير) إلا أنه لم يستطع أن يتبنى قناعاته، وبدت له روحه (العقلانية) غريبة عنه وكأنه ولد في عصر غير عصره. وبالفعل فنحن عندما نقرأ لهردر لن نخطئ إذا قلنا أن أفكاره مشابهة إلى حدم القناعات فلاسفة مابعد الحداثة. ولما كانت مبادئ فلسفة التنوير لا تروق لهردر فإن هذا لايعني أنه وقف موقفا سلبيا تجاهها، بل عمل على نقدها، وهذا ليس فقط في كتابه فلسفة أخرى للتاريخ، بل كتاباته كلها كانت بمثابة ردود أفعال ينتقد فيها فلاسفة التنوير.

لقد رأى هردر أن هؤلاء قد توغلوا كثيرا في التجريدات العقلية وبالغوا حين فسروا الحياة وجميع مظاهرها تفسيرا عقليا. فلم ترق له هذه النظرة العقلية للدّين ولا الهستريوغرافيا العقلانية، ولا فكرة التقدم العقلي في التاريخ، ولا النزعة الشمولية الكوسموبوليتانية، ولا فكرة القيم العالمية المطلقة... إلخ، وسنسعى فيما يأتي إلى ابراز الأسباب التي جعلت هردر ينتقد العقلانية التنويرية.

لقد قلنا من قبل إن كتاب **فلسفة أخرى للتاريخ** (Une autre philosophie de l'histoire) موجه بالدرجة الأولى كنقد للهستريوغرافيا التنويرية القائمة على العقلانية. والنقد الذي يوجهه هردر في هذا الكتاب لفلاسفة عصره لا يبدأ عندما نفتح الكتاب ونقرأه، وإنما ندركه وهو مغلوق. مانريد قوله هو إن النقد يبدأ من العنوان نفسه، فلو تأملنا قليلا عنوان الكتاب لأدركنا ذلك، ولتساءلنا لماذا هي فلسفة أخرى للتاريخ وليست فقط فلسفة التاريخ؟

إن الدلالة كلها تظهر في كلمة أخرى Autre. ويبدو أن هردر أراد أن يوجه نقدا غير مباشر لفلاسفة التنوير عموما، وبالأخص الفرنسيين منهم، وبالخصوص إلى فولتير الذي عنون كتابه فلسفة التاريخ للقس بازل الصادر عام 1765 قائلا إنه ليس هناك فلسفة واحدة

للتاريخ في القرن الثامن عشر، وإنما هناك فلسفة أخرى وطريقة أخرى لدراسة وفهم وكتابة التاريخ مختلفة عن طريقتهم.

يعتبر هردر عصر التنوير على أنه عصر أصيب بالغرور، عصر يعاني من فرط التكبر والكبرياء، عصر يقدس نفسه إلى حد احتقار العصور الأخرى، عصر أصيب بجنون العظمة.ويظهر هذا الغرور وهذا التكبر جليا في طريقة تعامله مع الثقافات السائدة في العصور الأخرى. إنه عصر يعتبر ثقافته على أنها النموذج الأفضل والأمثل والأكمل من جميع الثقافات الأخرى، وهو النموذج الذي كان من الأجدر على العصور الأخرى الاحتذاء به. هذه الثقافة التنويرية هي الثقافة التي تؤمن بالعقل وتقدس مكانته، هي الثقافة التي استطاعت أن تتخلى عن كثير من الترسبات التي لا تتوافق مع العقل وتقف عائقا في طريق تقدمه وتطوره. عصر يعتبر نفسه على أنه أفضل العصور وأكثرها تطورا وتقدما، بل وأكثرها سعادة. عصر يدّعي أنه استطاع أن يخلّص الإنسانية وينقذها وهذا لا لشيء إلا لأنه يؤمن بالعقل الذي يعتقد أنه يستطيع أن يجلب الخير والسعادة والتقدم للبشر أجمعين، ويحرر الإنسان من كل القيود التي كانت تكبله منذ سنين.

عصر التنوير، بالنسبة لهردر هو العصر الذي جاء ليضع حدا لهذه الفروقات التي تميز بين البشر وتجعلهم مختلفين وذلك عن طريق الدعوة إلى العالمية، إلى الدولة الكوسموبوليتانية التي يكون فيها الفرد مواطنا عالميا. وهذه الدولة لن تكون كذلك إلا إذا كان العقل هو مهندس تصميمها. والدعوة إلى العالمية يعني الدعوة إلى القيم والمعايير العالمية، إلى القيم والمعايير التي يشترك فيها جميع البشر، وهذه القيم والمعايير لن تكون مشتركة إلا إذا كانت نابعة من العقل والعقل وحده. عصر التنوير أراد أن يجعل كل البشر متجانسين، يؤمنون كلهم بالعقل ويحتكمون كلهم إليه، كلهم يفكرون وفق نمط واحد(التفكير العقلي)، وأذواقهم موحدة، ولغة واحدة(اللغة المنطقية) نمط عيش واحد، حقائق مطلقة ...إلخ.

لكن، يتساؤل هردر، هذه العالمية وهذه الدولة الكوسموبوليتانية على حساب ماذا؟ ما مصير القيم و المعايير واللغات المحلية والقومية؟ ما مصير الاختلاف الثقافي؟ كيف تغدو الإنسانية في ظل هذا الاستبداد المتنور الذي يريد القضاء على هذا التنوع والثراء الثقافي باسم القيم و المعايير العالمية؟... لقد كان هردر واعيا بما كانت تحضر له الحداثة الأوروبية من ألينة للحياة، وكان شاهدا على اللحظة التي أخذ فيها التنوير الغربي يهدد الاختلاف الثقافي ويهدد معه ثراء الحياة الإنسانية، ويقضي على خصوصيات الأمم والشعوب وجعلها تذوب وتندثر في هذا الكل الشامل. وقد عبر هردر عن ذلك بطريقة تهكمية فقال: "طبائع ونمط حياة! أية حقبة يمكن أن تكون مأساوية مازالت تعيش فيها خصائص الأمم: أية كراهية متبادلة، أي حقد للأجانب، أي استغراق في التفكير، أية أحكام قديمة مسبقة، أي تعلق بالأرض التي ولدنا فيها وفيها سنتلاشى! طرق تفكير محلية! حيز أفكار ضيق- بربرية لا تنتهي! أما عندنا، فحمدا للرب!كل خصائص الأمم تم القضاء عليها !نحن كلنا متحابون، حتى أن الواحد فينا ليس بحاجة لأن يحب الآخرين؛ نحن نتردد على بعضنا، وكلنا متساوون فيما بيننا–فنحن متأدبون ومتحضرون وسعداء! صحيح أننا لا نملك وطنا، ولا نملك ما يتيح لنا أن نسميه أهلنا الذين نحيا لأجلهم. ولكن نحن أصدقاء الإنسانية ومواطنون عالميون. كل أمراء أوروبا يتكلمون الفرنسية ونحن في القريب العاجل سنغدو مثلهم نتكلم الفرنسية، نتكلم الفرنسية! هنيئا لنا إذن! فالعصر الذهبي سيبدأ من جديد "العالم كله يملك لغة واحدة والكلمات نفسها" !"لن يكون هناك سوى قطيع واحد وراع واحد"!يا خصائص الأمم ماذا حل بكم؟"[16]

في هذا النص المقتبس من كتابه فلسفة أخرى للتاريخ يعبّر هردر وبأسلوب تهكمي عن رفضه لفكرة الدولة العالمية التي يروج لها فلاسفة التنوير وبالخصوص الفرنسيين منهم. لأن

[16] Herder, J.G. **une autre philosophie de l'histoire**, Trad. De l'allemand par : Max Rouché , (Paris, Aubier). pp. 281.283.

هذه الفكرة قد تبدو من الناحية العقلية والمنطقية متناسقة وجميلة وبريئة إلا أنها من الناحية الواقية هي غير ذلك. لأن هردر يعتقد أن محاولة فرض نموذج واحد من التفكير، ونمط واحد من العيش على الإنسانية جمعاء يحمل خطرا على فكرة الاختلاف والتنوع الثقافي الذي تزخر به الإنسانية. فإذا كانت فكرة توحيد الإنسانية من خلال توحيد المعايير والقيم وضبطها وفقا للنموذج العقلي هي فكرة تبدو من الناحية النسقية جميلة وبريئة، إلا أن هذه الفكرة ستبدو مرعبة عندما نطبقها على أرض الواقع. لأن الإنسانية تزخر بتنوع ثقافي وفكري وعقائدي ولغوي،وهو ما يعني أن هناك معاييرا وقيما مختلفة باختلاف الشعوب والأمم والثقافات، فإذا حاولنا أن نوحّد الإنسانية عن طريق توحيد المعايير والقيم فما مصير القيم الوطنية والقوميةإذن؟

إن فلسفة هردر ترفض فكرة القيم العقلية العالمية وأن هناك معايير عامة وكلية تنطبق على جميع البشر. فالقيم والمعايير لا يصنعها العقل كما يعتقد فلاسفة التنوير، وإنما تصنعها الثقافات واللغات والعادات والتقاليد والمعتقدات، ولما كانت هذه الأخيرة مختلفة من شعب إلى آخر، ومن أمة إلى أخرى فإن القيم والمعايير بدورها تكون مختلفة تبعا لاختلاف هذه الكيانات. وأية محاولة لفرض نموذج موحّد من القيم والمعايير على هذه الكيانات سيقضي مباشرة على التنوع الثقافي، ويهدد كيان الإنسانية ككل لأن توحيد القيم لن يكون إلا عن طريق توحيد اللغات والمعتقدات والثقافات والعادات والتقاليد، وتوحيدها يعني في ما يعني القضاء عليها والإبقاء فقط على ثقافة واحدة، ولغة واحدة، ونمط عيش وتفكير واحد، وهو المشروع الذي أراد فلاسفة التنوير التأسيس له.

ويسمي هردر النظام السياسي الذي يريد التكريس لهذا المشروع التنويري الطامح إلى تأسيس دولة كوسموبوليتانيةب: الاستبداد المتنور(Despotisme éclairé) وهو النظام السياسي السائد بامتياز في عصر التنوير. إنه نظام استبدادي لكنه ليس على الطريقة التقليدية وإنما على الطريقة الحضارية، على الطريقة التنويرية، وحتى وإن اختلفت طريقة ووسيلة الاستبداد

فإن النتائج التي يفضيان إليها هي نفسها. وهدف هذا الاستبداد التنويري في نظر هردر هو القضاء على خصائص الأمم والشعوب من أجل تأسيس دولة كوسموبوليتانية، ويدعي بذلك أنه صديق الإنسانية وأن هدفه هو توحيد البشرية. أما هردر فيرى أن الإنسانية ليست متجانسة،بل هي متنوعة في ثقافاتها ولغاتها وشعوبها، والذي يريد أن يكون صديق الإنسانية عليه أولا أن يكون صديق جميع الثقافات، وكل الشعوب، وكل اللغات، وأن يكنّ لها الاحترام والتقدير.

إن هردر ضد هذه النزعة الشمولية والعالمية المجردة التي تُكن العداء للإنسانية. والأعداء في حقيقة الأمر هم الفرنسيون أو بالأحرى هم فلاسفة التنوير الفرنسيين الذين يريدون إرجاع أوروبا كلها فرنسية تتكلم اللغة الفرنسية، وتفكر كما يفكر الفرنسيون. ويعود سبب هجوم هردر على فلاسفة فرنسا-أو كما يسميهم فلاسفة باريس- هو أن هؤلاء الفلاسفة أعلنوا عداءهم الشديد والصريح ضد كل مظاهر الحياة التي طبعت الجو الثقافي والفكري في العصور الأخرى، مثل الدين، الأسطورة، الخرافة، الاستبداد..وغيرها من المظاهر الأخرى، والأكثر من ذلك اعتبروها سبب التخلف والانحطاط. وفي المقابلأعلنوا ولاءهم التام للعقل الذي أصبح عقيدتهم الجديدة.ولما كان الأمر كذلك فإن فلاسفة التنوير يعتقدون أن البشرية لن تتقدم ولن تتطور ولن تتحضر إن لم تعمل على القضاء على هذه المظاهر المتخلفة. لهذا أعلن فلاسفة التنوير وبالخصوص الفرنسيين منهم عداءهم الشديد للدّين ولكل مظاهر التدّين عموما. وأصبح كل ما لا يتوافق مع روح عصرهم، أي مالا يتوافق مع العقل، أصبح مدانا ووجب إقصاؤه.

ولما كان الدّين في عصر التنوير متهما من طرف العقل فإنه-بالنتيجة-بدت لهم شعوب الحضارات الشرقية القديمة شعوبا همجية ومتخلّفة كونها تنظر إلى العالم وتفسر الظواهر الطبيعية عن طريق الخرافة والأسطورة. كما أصبحت العصور الوسطى مدانة بدورها لأن خطاباتها كانت خطابات دينية وتفسر الطبيعة تفسيرا لاهوتيا في حين كان الأجدر-حسب

فلاسفة التنوير- تفسيرها تفسيرا عقليا. كما أرجع هؤلاء الفلاسفة ألوان الخوف وأشكال الطغيان التي عاشتها الإنسانية في الحضارات القديمة إلى الدّين، وكأن الدّين هو سبب بؤس الإنسانية وتخلفها. ومن الواضح أن فلاسفة التنوير يعلون من قيمة الروح السائدة في عصرهم على الروح التي كانت سائدة في العصور الأخرى، ومن ثقافتهم على الثقافات الأخرى.

لقد ثار هردر ضد هذه الهستريوغرافيا التنويرية القائمة على العقلانية وعلى هذه الانثروبولوجيا المجردة التي يمارسها فلاسفة التنوير لأنها قائمة على مبدأ الإساءة إلى الحقب والثقافات والشعوب الأخرى. وهو يعترف أن العقل الإنساني في عصر التنوير قد قطع أشواطا كبيرة من حيث مناهج الدراسة والتفكير، كما شهد انتشارا كبيرا للمعارف وتجذر التفكير العقلي والمنطقي، فكان عصرهم بمثابة انعطافة لا مثيل لها في تاريخ البشرية، إلا أن هذا التقدم العلمي والتقني، في نظر هردر، لا يعبّر وحده عن تقدم العقل البشري ما لم يصاحبه تقدم روحي وأخلاقي. فعلى صعيد الطبيعة البشرية لم تعرف القيم والفضائل والأخلاق انتشارا في أوروبا التنويرية، والسبب في ذلك يرجعه هردر إلى التنوير الذي مسّ فقط الجانب المادي والتقني، وهذا الجانب لا يعبّر عن الوجه الكامل للتقدم العقلي والحضاري، وبالنتيجة أصبحت القيم والعادات والتقاليد والميولات والغرائز مهددة من طرف الزحف التقني،فلم يعد الإنسان يشعر بإنسانيته، ولم يعد يتذوق طعم الحياة، ولم تعد له رغبة فيها، وقد عبّر هردر عن ذلك بقوله "بلغ التنوير أقصى حدود الانتشار والتوسع، ولكن في المقابل، ألم تعرف الميولات والغرائز الحيوية ضعفا شديدا! ... إن الآلة قد قضت على الرغبة في الحياة ومتعة العيش بإنسانية وبراحة ورضى، وهل هناك أكثر من ذلك؟ إنه في عمومه وفي أبسط أجزائه يعبر عن فكر السيد".[17]

لقد كان هردر واعيا بتبعات هذا المشروع التنويري الذي أراد ألينة الحياة من خلال الترويج لفكرة القيم والمعايير العالمية المطلقة، فنصّب نفسه مدافعا عن حق الاختلاف الثقافي،

[17] Herder, G. J. op. Cit., p. 251.

وذلك بهدم وتقويض فكرة القيم والمعايير العالمية والمطلقة، وإحلال مكانها فكرة القيم والمعايير النسبية.ومفاد هذه الفكرة الهردرية هو أن الثقافات والأمم والشعوب مختلفة فيما بينها؛ بحيث من المستحيل إلغاء الفروقات التي تميزها. والبشر مختلفون من حيث العادات والتقاليد والمعتقدات واللغات والأذواق والقيم والمعايير، هذا لأنهم ينتمون إلى ثقافات وأمم مختلفة، وإذا تم انتزاعهم من انتماءاتهم فسيشعرون بالاغتراب وفقدان الهوية. وتعد فكرة الانتماء إلى الأمم والثقافات من أهم الأفكار التي جاء بها هردر[18]، وهي بالدرجة الأولى موجهة ضد النزعة الشمولية التنويرية القائمة على الأسس العقلية والتي تريد أن تنمط الحياة الاجتماعية والسياسية. في حين أن لكل أمة ولكل ثقافة قيمها ومعاييرها الخاصة بها، ومنه نمط عيش خاص بها، وأية محاولة لفرض نظام شمولي كوسموبوليتاني تخضع له كل الشعوب والأمم هو إيذان بتحطيم هذه الكيانات بكل ما تحتويه من خصوصيات.

ويرى هردر أنه من الواجب احترام هذا الاختلاف الثقافي، بل ويعتبره أمرا ضروريا، وبدونه لن تستقيم الإنسانية ولن يعرف الخير طريقا إليها. و هذا الاحترام يكون من خلال جملة من القواعد:

- **عدم إصدار أحكام مسبقة عليها أو الحكم عليها من الخارج**؛ حيث يعتقد هردر أنه حتى نستطيع فهم أمة ما أو ثقافة ما بكل ما تملكه من خصائص ومميزات علينا أن نتعاطف معها.[19] والتعاطف يعني به أن نغوص في تركيبة هذه الأمم والثقافات الأخرى والإنصات إليها عن قرب. أن نعيش وسطها، أن نتجرد من أحكامنا المسبقة حتى نستطيع فهمها، وليس أن نحكم عليها من الخارج كالحكم على ثقافة ما من خلال ثقافة أخرى غريبة عنها،أو كما فعل فلاسفة التنوير لما أطلقوا أحكاما معممة وكلية مصدرها العقل المجرد، في حين

[18] ايزايا برلين، المرجع السابق، ص124.

[19] Giassi Laurent, **la philosophie de l'histoire selon Herder en 1774**, philopsis éditions numériques, 2010,http ://www.philopsis.fr.

توجد اختلافات ومميزات تنفلت من كل هذه الأحكام المطلقة، بل وتبدو غريبة عنها ولا تعبر عنها، والأكثر من ذلك تعمل على تشويهها والإساءة إليها.

– عدم المقارنة بين الثقافات: إن المقارنة تعني أن هناك سلما للقيم إليه نعود في عملية المقارنة ووفقا له نصدر أحكامنا.كأن نقول إن ثقافة ما هي أفضل من الثقافة الأخرى، أو أن هذه الأمة أكثر سعادة من الأخرى،أو أن هذا العصر أكثر تقدما وتطورا من الآخر، أو ما جاورها من الأحكام. وهو الخطأ الذي وقعت فيه الهستريوغرافيا التنويرية لما عمدت إلى المقارنة والمفاضلة بين الثقافات ومختلف الحقب التاريخية، وافترضت أن هناك معايير قيمية ثابتة ومطلقة نستطيع من خلالها الحكم على مختلف الثقافات والحقب.

هذه المعايير وضعها تعسفا فلاسفة التنوير بما يتوافق مع أذواقهم وثقافتهم، ولما كان عصرهم عصر العلم والعقلانية فإن المعايير التي حكموا بها على العصور الأخرى مستمدة من روح عصرهم، وبالنتيجة بدت لهم هذه الثقافات منحطة ومتخلفة وهمجية. وهذا ليس لأنها هي كذلك، وإنما لأنهم طبقوا عليها معايير(عقلية) غريبة عنها ولم تنبع من داخلها. وعليه فإن فلاسفة التنوير أخطأوا لما حكموا على الثقافات الأخرى من خلال ثقافتهم، وأخطأوا لما حاولوا فرض أذواقهم على الآخرين، وأخطأوا حين عمدوا إلى المقارنة والمفاضلة بين الثقافات.[20] في حين أن لكل ثقافة، ولكل حقبة معاييرها وأذواقها الخاصة بها، وفعل المقارنة مرفوض من أساسه عند هردر لأنه لا يؤمن بما يسميه التنوير بمعايير ثابتة ومطلقة، ولا يوجد سلّم قيمي عالمي، وإنما هناك معايير محلية وطنية خاصة بكل ثقافة وبكل حقبة تاريخية.

أن نحترم الاختلاف الثقافي هذا يعني أن لا نخضعه للترتيب والمحاسبة لأن كل الثقافات وكل اللغات متساوية،بل وهي في تكامل وتواصل وليست في شقاق وتناحر. فليس من حق أية أمة في الادعاء على أنها هي التي ساهمت وبشكل أكبر من مثيلاتها في جلب الخير

[20] Herder, op. Cit., P. 179.

والتقدم للإنسانية، لأن ما وصلت إليه الإنسانية في لحظة راهنة هو نتيجة تراكمات لمجموعة من المراحل ولمجموعة من الثقافات، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنها، ومنه فإن كل الثقافات وكل المراحل متساوية فيما بينها. وهذا حتى يدحض فكرة التقدم العقلي التي يروج لها فلاسفة التنوير الذي يعتبرون أن عصرهم أفضل العصور وأكثرها تطورا وتقدما وتحضرا، ليردّ عليهم أن ما وصلت إليه الإنسانية في عصر التنوير كان نتيجة تراكم لأفكار ومعارف الحضارات السابقة،وليبين أن كل المراحل التاريخية قد ساهمت في هذا التقدم.

هذا التصور الهردري للثقافات أسّس لما يسمى بالنسبية الثقافية، وأسّس لفكرة التسامح الثقافي والأممي.[21] ويبدو أن التأكيد على أصالة كل أمة وكل ثقافة هو بحاجة إلى استقلال من أجل تحقيق مصيرها والتعبير عن كيانها بكل حرية، وأن لا نخضعها لأنظمة شمولية بالقوة. وهذه الفكرة تقود هردر إلى الاعتراف بالبعد القومي وبالانتماء الثقافي، ومنه الدعوة إلى استقلالية أكثر لهذه الأمم. ولما كان الأمر كذلك فإن هردر يعد الرسول المبشر بالنزعة القومية الثقافية[22]، حتى وإن لم يعتبر نفسه قوميا إلا أن تأكيده على خصائص الأمم والثقافات قد منح النزعة القومية الثقافية أسباب تشكلها.

ولما يدافع هردر عن حق الاختلاف الثقافي والأممي فإنه ضد الدولة التي تسعى إلى قمع هذا الاختلاف الثقافي واللغوي، ضد هيمنة أمة على أخرى، ثقافة على أخرى،لأن هذه الهيمنة والسيطرة ستكبح حق وحرية الكيانات القومية الأخرى في التعبير عن ذاتها، ويخلق ذلك عائقا يمنع تطورها وفقا منطقها الخاص بها.[23]

---

[21] Claude Chancel, Didier Danet et Gil Delannei, et al (sous la direction) **Rapports à autrui et personne citoyenne**,(Paris: presses universitaire du Septentrion, 2002), P. 170.

[22] Guy Laforest, « Herder, Kedourie et l'antinationalisme», *l'engagement intellectuel : mélanges en l'honneur de Léon Dion*, (Canada : presses de l'université Laval, 1991), PP.331.332.

[23] Ibid., P. 332.

إنه ضد الدولة التي تعمل على الخلط بين الأمم والثقافات بطريقة تعسفية وتفرض عليهم نمطا واحدا من التفكيروالاعتقاد والعيش. وهذا لا يعني أنه ضد هذا المزج بين الأمم والثقافات، وإنما ضد ما تمارسه الدولة الشمولية من استعمار وقمع للشعوب والثقافات المختلفة، وهذه الهيمنة تقضي لا محالة على جمالية تنوع واختلاف الإنسانية.

لقد أخفق فلاسفة التنوير في اعتقاد هردر، على فهم الماضي حين طبقوا عليه معايير لقراءته لم تؤسس إلا لحاضرهم،وأخطأوا حين استندوا فقط إلى أنظمة التفكير التي توصلوا إليها في عصرهم متجاهلين المسافة الزمنية التي تفصلهم عن الماضي وعن طرق تفكيره. فكان حالهم، حين حكموا على الماضي من خلال حاضرهم، كحال الإنسان الراشد الذي يطالب الطفل الصغير نفس القدرات والكفاءات التي يتمتع بها. فلما كان من غير المنطق، يقول هردر، أن نطالب الطفل نفس الحكمة التي يملكها الشيخ، فإنه من غير المعقول أيضا أن يطالب فلاسفة التنوير العصور الأخرى الماضية بنفس التفكير العقلاني الذي توصلوا إليه في عصرهم لأن عقلهم لم ينضج بعد بالشكل الذي شهده عصر التنوير.

وهذا يقودنا إلى نقطة أخرى–والتي أشار إليها آلانفينكلكروت في كتابه la défaite de la pensée– ينتقد فيها هردر فلاسفة التنوير والمتعلقة بـ: العقل التاريخي والعقل المتعالي عن التاريخ، ففلاسفة التنوير يدعون إلى فكرة العقل المتعالي عن التاريخ والذي يؤسس لمبدأ مفاده أن جميع الأفراد يشتركون في الأفق، وهذا الأفق هو الذي يشكّل ماهيتهم ويجعلهم موحدين. وهذا العقل المتعالي هو الذي يعطي الشرعية لتأسيس القيموالأخلاق العالمية. أما هردر فيدعو إلى فكرة العقل التاريخي التي مفادها أن العقل ليس شيئا معطى مسبقا أو ماهية مسبقة وإنما العقل هو شيء يتشكل وفقا للسياق التاريخي الذي وجد فيه. ما يعني أن الأفراد يكتسبون ماهيتهم في المجتمع الذي ولدوا فيه وفي الثقافة التي نشأوا فيها. ومن هذه الثنائية بين العقل التاريخي والعقل المتعالي عن التاريخ نشأت هذه الثنائية بين القيم النسبية والقيم المطلقة العالمية.

ويعتقد آلانفينكلكروت أن تبعات هذا التصور التاريخي للعقل وللنسبية التاريخية كارثية ووخيمة على القيم والأخلاق العالمية (أي على الواجبات والحقوق العالمية التي ينبغي أن يخضع لها جميع الأفراد)، وهذه القيم العالمية تفقد معناها أمام النسبية التاريخية. وكذلك فكرة المبادئ السياسية وحقوق الإنسان التي يجب أن يخضع لها كل موطن تصبح لا أساس لها. وتصبح بذلك كل محاولة لتطبيق قيم عالمية وقوانين كلية على جميع الشعوب والثقافات عبارة عن امبريالية سياسية وثقافية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يعتبر فينكلكروت أن فلاسفة ما بعد الحداثة،وهم يتبنون أفكار هردر التي تؤسس لفكرة حق الاختلاف الثقافي والنسبية التاريخية، جعل الثقافة المعاصرة والراهنة تقع في أزمة القيم والمعايير. أزمة لا مخرج منها، يقول فينكلكروت، إلا من خلال تعالي الأفراد عن الظروف والأوضاع التاريخية التي يعيشون فيها؛ أي يتعالون عن القيم والمعايير المحلية من أجل القيم والمعايير العالمية، ما يعني أنه يدعو إلى العقل المتعالي.[24]

لكن، إذا سلمنا بفكرة تعالي العقل عن السياق التاريخي الذي وجد فيه فإننا بذلك سنفقد الوسيلة التي من خلالها نستطيع تبرير الأشياء، لأن منطق الأشياء يتشكل من خلال السياق التاريخي الذي وجدت فيه، وإذا حاولنا فهمها خارج سياقها التاريخي فحتما سنسيئ فهمها.[25] ويبدو أن الخلاف واضح بين ما يدعو إليه هردر من جهة وفينكلكروت من جهة أخرى، فهردر يدافع عن النسبية التاريخية وعن القيم المحلية، أما فينكلكروتفيدافع عن القيم العالمية وعن حقوق الإنسان. ويعتبر أن النسبية التاريخية تهدد القيم العالمية وتدعو إلى فردانية لا متناهية ترفض الانفتاح على العالمية.[26]

[24] Charles Larmore, **modernité et moralité**, (Paris, PUF, 1993), pp.231.233.
[25] Ibid. P. 239.
[26] Ibid. 238.

ويعتبر شارل لارمور أن فينكلكروت أخطأ في حكمه على هردر حين اتهمه بالنسبية وبالفردانية التي ترفض الانفتاح على العالمية،بل نجد أن هردر–في المقابل– طور في فلسفته للتاريخ مفهوم الإنسانية الذي يتيح الحديث عن القيم العالمية. ما يعني أن هردر يدعو إلى النسبية التي تعترف بالعالمية وبالعالمية التي تعترف بالنسبية.

خاتمة:

يمكننا القول في الأخير إنهردر يعد من الفلاسفة الأوائل الذين شنوا الحرب ضد الفلسفة التنويرية الموغلة في التجريدات العقلانية، وهو من بين الفلاسفة الأوائل الذين أدركوا التبعات الخطيرة التي يمكن أن تنجر عن الهستريوغرافيا القائمة على العقلانية. وبانتقاده لهذا المشروع العقلاني التنويري فإنه يعدّ بذلك من الآباء المؤسسين للتيار المعادي للفلسفة التنويرية وللحداثة عموما.